الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

رئيس التحرير والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef et directeur
SOUHEIL IDRISS

العدد الخامس
نيسان (ابريل)
السنة الثامنة

No. 5 Mai 1960
نوار (مايو)

بيروت
ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

القوميّة العربيّة والحياة

بقلم نازك الملائكة

لعل الصفة الكبرى لذهنية الانسان المعاصر هي الرغبة الجامحة في الحصول على تعريفات شاملة واضحة للاشياء كلها . فلقد تساقطت هالات القداسة عن الاشياء وبتنا مغرمين بالوضوح والاقتناع الكامل ، وبالغنا في ذلك فعدنا نطلب تعريفات حتى لما يكبر عن التعريف . ولعلنا ننسى ان التعريف ، في حقيقته ، حصر وتضييق وتقليل من قيمة الاشياء ، بينما تأبى الحياة وتتعالى كلياتها عن ان يضيق عليها . ومن ثم فاننا حين نمضي في بحثنا الاهوج عن التعريفات تكون النتائج وبالا علينا ، لان ما لا يعرف يبقى بعيدا راسخا مغلفا بالضباب لايرقى اليه شيء من الفاظنا ، بينما نتيه نحن ونغرق في تيه الكلمات والعبارات . وخلال ذلك يبقى قانون الاشياء التي فشلنا في تعريفها نافذا فينا ، يعمل في حياتنا ويسيرها ، تماما كما تسير الشمس حياة انسان ينكر وجودها بتعريف مغالط .

ولا ريب في ان البحث عن التعريفات قد جاءنا من الغرب ، من اوروبا التي يتصف الفكر فيها بانه متشكك قاصر عن ان يتحسس البصيرة المضيئة التي ركبتها الطبيعة في الانسان . واما نحن في هذا الشرق العربي فاننا نملك من روحانية الطبع وغزارة العاطفة ونقاوة الايمان ما يجعلنا نقف خاشعين مبهورين امام المغيب والمجهول ، سواء كان ذلك في اعماق كياننا الانساني المبهم ، ام في الكون الكبير كله . ولقد حاول الغرب ان يشككنا في قيمة هذه الصفة فينا كل التشكيك ، غير انها بقيت مع ذلك مزية فينا لانها لا تصدر الا عن اتصالنا بالاعماق الفطرية للانسان . لقد وقفنا دائما خاشعين امام الطبيعة وامام الانسان فتقبلنا الحقائق الكبرى تقبل تسليم دون ان نناقشها او نحاول تعريفها . وكان ذلك هو اساس حكمتنا الشرقية .

لا ، لم نحاول ان نعرف اشياء مثل « الله » و « العروبة » و « الجمال » و « الروح » و « الغيب » و « العاطفة » لم نحاول ذلك حتى جاءنا هذا العصر الحديث الذي اسلم قياد اذهاننا الى اوروبا المتشككة . لقد افتقرت روحيتنا الى درجة اننا اصبحنا لانستطيع ان نستمتع بدفء الشمس قبل ان نجد تعريفا لهذه الحرارة السحرية التي تغرق كياننا كله وتملأنا بالنشوة والخدر اللذيذ . ولم يعد في امكاننا ان نشعر بعذوبة قوميتنا العربية الا اذا حصلنا اولا على تعريف شامل شاف لها . ونحن في ذلك اشبه بانسان يمتص قصب السكر ويرفض ان يجد له لذة الا اذا لجأ الى مختبر وحلل السكر الى جزئياته اولا .

وهكذا بتنا نسمع السؤال يضج ويصرخ ويدوي : ما هذه القومية العربية ؟ وما تعريفها ؟ ولاح السؤال للمستعجلين والبسطاء ـ ذكيا ومفحما ، ووقفوا عنده حائرين ، كما يقف انسان نفاجئه بالسؤال : « ما الجمال؟ ما تعريفه ؟ » فالحق انه سؤال عريض . واذا نحن عجزنا عن اعطاء تعريف فالمشكل خطير . ذلك ان عصرنا المريض يحب التعريفات على استعداد لان يعتقد بان مالا يعرف لا وجود له . ونتيجة اخفاقنا في صياغة تعريف للقومية العربية سنقضي عليها في نظر بعض الناس بان تختفي وتتلاشى وتصبح كلمة فارغة لاكيان لها .

« ان جوع العروبة في نفوسنا لهو الذ انواع الجوع واحبها لانه الجوع الاسمى الذي يرتكز الى عطش الاكتمال وحرقة الحياة نفسها ، فلا سعادة لنا من دونه ولا غد ولا انسانية »

في الشارع ، امام منزلنا ، اذكر انني رأيت ذات مرة طفلا صغيرا ، اسود الشعر والعينين ، يتطلع الى الشمس في غيظ وحنق . وهو يلهث تعبا . لقد كان طيلة دقائق

كثيرة يبذل مجهودا شجاعا في سبيل ان يسبق ظله الذي يمتد امامه في الشارع . كان يظن انه اذا ركض فجأة فسوف يأخذ ظله على غفلة ويسبقه . وكان يقف متربصا لحظات ، ثم يثب في قفزة سريعة واحدة ، ويحسب يقينا ان الظل لن يسبقه على غفلة ويسبقه . وكان يقف متربصا الظل امامه مهما فاجاه ومهما احتال عليه . واخيرا رأيته يستسلم وينصرف مغتاظا عن هذه اللعبة . واني لاتذكر هذا الطفل الساذج كلما رأيت محاولات المغتاظين في حربهم لعروبة الامة العربية . ذلك انهم ، حين يحاولون ان يفصلوا بين سكان هذه البقعة وقوميتهم العربية ، ليسوا باقل سذاجة من الطفل الذي يحسب ان من الممكن ان يفصل جسمه عن ظله بحركة مفاجئة . ان هذا الجسم سوف يلقى هذا الظل مهما غير الطفل حركته ومهما اسرع فيها . وكذلك سوف يكتسب سكان هذه المنطقة صفة العروبة مهما فعل المغتاظون ومهما حاولوا تغيير الاسماء التي يطلقونها عليهم . **ان العروبة هي الصفة التي تمنحها هذه البقعة لأبنائها كما ان هذا الظل ، هو الظل الذي يلقيه ذلك الجسم على الارض . ولن تتغير هذه الحقيقة مهما صعنا لها من تعريفات .**

ومع ذلك ، فما زال المطلوب منا ان نجد تعريفا للقومية العربية ، تماما كما ينبغي لنا ان نعرف الجمال والحياة والدفء وضوء القمر وطعم السكر . وحين نقف بازاء هذه المبهمات الجميلة لنعرفها سنلاحظ انها كبيرة بحيث تصغر امامها كل لغة ، وان محاولة التعريف تنطوي ، في ذاتها ، على فرض سابق باننا منفصلون عن هذه الاشياء واننا اعلى منها . وذلك موقف ساذج ينبغي الا نقع فيه ذلك ان هذه الاشياء ترتبط بحواسنا وكياننا بحيث لا يعود من الممكن ان ننفصل عنها لنحكم عليها من الخارج . ان القومية العربية وضوء القمر وطعم السكر كلها اشياء تكبر عن التعريف لانها قوام حياتنا . واي تعريف يحد من لانهائيتها ، لايسيء اليها وانما يسيء الينا نحن . وذلك لان قانونها نافذ فينا سواء اعترفنا به ام لم نعترف وسواء اوجدنا له بعريفا ام لم نجد . فاذا انشغلنا عن ذلك القانون بالتعريفات ، او وضعنا تعريفا يقلل من قيمتها فلن يتلقى النتائج المريرة المضرة سوانا .

وهكذا ننتهي الى القول **بان القومية العربية ـ مهما كان تعريفها ـ تنمو في قلوبنا ، بمعزل عن وعينا ، وتختلط بكل قطرة من دمائنا ، وترسب في عظامنا وتتصلب معها .** وسواء سمعنا بها ، واهتدينا الى اسمها ، ام بقينا على جهل تام بها ، فنحن نحتويها في اعماق كياننا . وما ذلك الا لانها محصلة الاندفاع العفوي للحياة نفسها ، فهي كالزهرة تنبت على الشجرة لمجرد ان هناك تربة وغذاء وماء، لمجرد ان هناك حياة . **فما تكاد الانسانية توجد حتى تبدأ القومية .** وكما ان الحياة تنمو بالشمس والغذاء والهواء ، فكذلك ينمو الشعور القومي في دماء الانسانية الحية . ان شمسنا العربية تسكب دفئها القومي في دمائنا منذ الطفولة ، **ونحن عرب ونحن قوميون لمجرد اننا عشنا حياة طبيعية ونمونا مع الضوء والنسيم الحر والخضرة .** والحق اننا اذا رضينا ان نضيق القومية العربية الى درجة ان نحصرها فلن نتردد في ان نعرفها بانها **الحياة نفسها ، الحياة الانسانية كما تتجلى في هذه البقعة الخصبة الموهوبة من العالم .**

ان هذا التعريف بان القومية هي الحياة ، ينطوي ، على صغره ، على مضمونين نحب ان نقف عندهما :

المضمون الاول **ان القومية العربية ارث في كياننا لامهرب لنا من ان نحمله ونخضع له ونتطبع به . انها كائنة وواقعة،** ونحن في داخل حدودها ، وهي تحيط بنا وتتضمننا وتشتمل علينا . فاينما اتجهنا ومهما اعتنقنا من الافكار فنحن قوميون عرب ، شئنا ام ابينا ، تلك هي صفتنا الحقة التي يتحكم قانونها فينا . ان الطفل العربي يصبح قوميا بمجرد ان يولد ، والانسانية عموما تكتسب صفة القومية بمجرد ان تكون صفة تتحرك وتتغذى وتبدع . وما يكاد المرء يصغي الى متطلبات الحياة والفطرة في نفسه حتى يصبح قوميا . وانه لاكيد اننا لو نجحنا في تجريد اي عربي من قيوده وتصنعاته والتواءات تربيته ، لوجد نفسه عربيا قومي الاتجاه .

اني احتفظ في ذاكرتي بحكاية قرأتها مرة عن الاسكندر الكبير الذي غزا الشرق العربي قبل الميلاد واوغل فيه . يقال انه اخضع البلاد كلها غير العراق الذي بقي ثائرا مشاكسا وابى ان يستكين فكان يقلق راحة هذا الفاتح بلا انقطاع . وعندما تعب الاسكندر استدعى حكيما وشاوره قائلا : « لقد يئست من اخضاع اهل العراق وانا افكر في ابادتهم ابادة تامة بالقتل ليتاح لي ان انتهي منهم دفعة واحدة . فماذا ترى ؟ » وقد فكر الحكيم قليلا ثم رد عليه « لاتفعل . فلا فائدة لك في ابادتهم . ذلك ان الجو العراقي والتربة العراقية سرعان ما سيخلقان قوما عراقيين على غرار الذين قتلتهم تماما . » ان هذه الحكاية تشخص فكرتنا خير تشخيص ، **فالجو العربي ـ في العراق وغير العراق من اقطار الوطن ـ لا يملك الا ان يخلق عربا ، وهذه القومية هي محصول عاطفي وذهني تنبته تربتنا وسهولنا وانهارنا . فلو قتلونا كلنا ، لنشأ بعدنا عرب مثلنا وارتفعت اغنية العروبة لتملأ الفضاء كما كانت دائما .**

ان القومية العربية هي ، في الواقع ، مجموع ما فينا من خصائص وراثية وبيئية ، والخلاصة الحقة لبنائنا العاطفي وتكويننا النفسي والعقلي والجسمي . انها تلازمنا كما تلازمنا سمرة وجوهنا وسواد عيوننا وعاطفيتنا . فالسمرة والعاطفية والعروبة نفسها ، خصائص عفوية فينا، ليس لنا يد في تكوينها ولا سيطرة لنا عليها ، الا بمقدار ما تستطيع شجرة التوت ان تسيطر على خصائصها . ولعلنا نحمل عروبتنا كما تحمل شجرة التوت اثمارها التي تنضج بالسكر والعصير وهي لا تدري لماذا تنبت وكيف .

وليست العروبة باقل سكرا او عبيرا من ثمرات التوت لو نحن تذوقناها بشفاه الروح . ذلك أن التوت هو فضيلة الشجرة التي تنبته ، واما العروبة فهي فضيلتنا نحن ، بنفس الاسلوب . وانه لمحزن الا نستطيع ادراك هذا ، فيفوت علينا بذلك ان نستفيد من المزية الرائعة التي تمنحنا اياها هذه الفضيلة ، قوميتنا .

اما المضمون الثاني لتعريفنا بان القومية هي الحياة ، فهو اننا بهذا التعريف **نسبغ على القومية ما للحياة من ضرورة، فهي مطلوبة لاننا لا نستطيع ان نعيش من دونها ولان المجتمعات لا تقوم على شيء غيرها** . يطلب الانسان الماء والغذاء بفطرته لانهما يغذيان جسمه ، وهو يبحث عن الشمس ويحكمها في حياته لان وجوده يرتكز اليها . وكذلك نبحث عن قوميتنا ونلتصق بها لانها تغذينا وتحمينا وتفسر لنا وجودنا ، ومن دونها تستحيل الحياة . ونحن في ذلك شبيهون بالاشجار التي تبحث عن مصلحتها فتأخذ من الدفء والضوء والالوان ما يعينها على النمو والحياة ، وكذلك تبحث الانسانية فينا عن مصلحتها وضمان سعادتها فتجدها في الشعور القومي .

ولعل اكبر الادلة على ضرورة الاحساس القومي هو ابسطها على الاطلاق . ذلك شأن الحياة ، يكمن اعمق ما فيها من عمق ، في ابسط ما فيها من بساطة . وقد الف الانسان ان يعقد الامور فيبحث دائما في ما هو بعيد ، بدلا من أن يلقي نظرة حوله . احيانا نبحث ساعات عن شيء اضعناه في الوقت الذي يكون فيه في احد جيوبنا . وهكذا رحنا نبحث عن مبررات الاحساس القومي بعيدا عن ذواتنا مع انها تكمن فينا نحن ، قبل اي موضع اخر . ذلك ان مجرد وجود احساس ما ، يدل حتما على انه ضروري،لا يمكن الاستغناء عنه . والواقع ان الوجود والضرورة هما شيء واحد لايمكن تقسيمه الى اثنين . ان ما هو موجود انما كان موجودا ، لمجرد انه ضروري ، ذلك هو القانون . **وما دامت القومية العربية شيئا واقعا محتوما على كل انسان ولد في هذه المنطقة وعاش فيها ، فنحن لانحتاج الى ان ندعم ضرورتها باي دليل غير وجودها نفسه .**

في العلوم الطبيعية نقرأ ان الحاجة هي التي تخلق العضو وليس العكس ، او أن الاعضاء انما نشأت في الاصل لانه قد كانت هناك حاجة اليها تحتم وجودها . وهذا صحيح في الميدان العاطفي والاجتماعي ، صحته في المجال العضوي . وهو التبرير الاكبر لوجود الشعور القومي في نفوسنا . فانما نحن عرب قوميون لاننا كنا دائما وسوف نبقى محتاجين الى ذلك . وعلى اساس عروبتنا هذه قامت مظاهر حياتنا كلها ونما تفكيرنا ونشأت حضارتنا . فلو طلب الينا الان ان ننزع قوميتنا ونستبدلها بشيء أخر ـ مهما كان ـ لكان ذلك اشبه بان يطلب الينا ان نقطع رؤوسنا أو نتخلص من قلوبنا ونستبدلها باعضاء اخرى .

ان القومية العربية قد كانت نتيجة اجتماعية محتومة تطلبتها ظروف هذه المنطقة عبر قرون التاريخ البطيئة . او لنقل انها تشبه ان تكون مجموعة اعضاء اجتماعية خطيرة تقابل الاعضاء الفزيولوجية ، وقد باتت لهذه الاعضاء وظائف حية ، فمن المستحيل ان ننزعها دون ان نموت . لقد اصبحت هذه القومية حاجة طبيعية «بايولوجية» ينبغي ان تتحقق لكي يستطيع الانسان العربي ان يكون سعيدا ويعطي الحياة اوسع عطاء يتاح له . وسوف نستعرض فيما يلي بعض وجوه هذه الحاجة .

أ ـ الحاجة الانسانية الى المشاركة

يستند الشعور القومي ، في جوهره ، الى الانسجام الطبيعي القائم بين الناس الذين يعيشون في بيئة واحدة ويتحدرون من ظروف تاريخية واحدة . وهذا الانسجام ضرورة من ضرورات الحياة ، يذوي الانسان من دونه ويموت . انه قانون نافذ فينا سواء أأدركناه ام لا . فنحن في حياتنا القومية نحتاج الى ان نجسد اناسا يفهموننا ويشاركوننا عقائدنا وحماساتنا وارائنا . ونحن نبحث عن هؤلاء الناس بحثا دائبا ، فما نكاد نجد من يشبهنا حتى نندفع نحوه بغريزة خفية محتومة . وقد الف الانسان ان يفتاظ ويتألم اذا احس انه في وسط يخالفه نزعاته ورغباته العميقة الكبرى . وقد ترحل الاسر من الاحياء التي ترى نفسها فيها غريبة ، مفضلة احياء اخرى تلقى فيها من

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

يفهمها ويتذوق ما تتذوق . وقد تترك مجتمعات كاملة وسطها وترحل الى اوساط اخرى تجد فيها المشاركة والفهم . وهذه الرغبة الاجتماعية تنبع من صميم متطلبات الحياة الفطرية وغرائزها . ان الطبيعيين يخبروننا بان المخلوقات الحية ـ مهما صغرت ـ تبحث عن الوسط الذي يضع في طريق نموها اقل مقدر من المقاومة . واذا اشتدت المقاومة ولم يستطع الكائن الحي ـ لسبب ما ـ ان يغير وسطه ، اضمحل وربما انقرض نوعه كله على ممر السنين . وذلك ينطبق حرفيا على الانسان الذي يتطلب فوق الانسجام الطبيعي الذي يتطلبه كيانه العضوي ، انسجاما عاطفيا وتجاوبا فكريا . ولن يتاح لهذا الانسان أن يستفيد من موارده العقلية والروحية وينتج الانتاج الحق الذي خلق له الا اذا تيسر له الوسط الملائم الذي يضمن له الحد الادنى من الطمأنينة والرضى والسعادة . وذلك ينطبق على الافراد كما ينطبق على المجتمعات ، وهو الاساس في حاجة المجتمعات الى ان تقوم على دعائم من قوميتها .

والقانون هو انه كلما كانت العناصر المشتركة بين الاقوام اكثر واعمق جذورا كانت القومية التي يكونونها ارسخ واصلب عودا واقدر على المقاومة . والقومية العربية محظوظة بكثرة هذه العناصر فان سكان المنطقة الممتدة من المحيط الاطلسي الى المحيط الهندي يرتبطون بعدد عجيب من الروابط كاللغة والتاريخ والثقافة والحضارة والتقاليد والارث الخلقي والاحوال الاجتماعية والظروف السياسية وغير ذلك . وهذه الروابط هي ، ولا ريب ، مصدر سرور كبير لكل فرد عربي بما تمنح الانسان من فرح الاحساس بالمشاركة وطمأنينة الارتباط بالملايين اعمق ارتباط . واي شعور من الغبطة يعترينا حين نسافر متوغلين في بوادي جزيرتنا العربية فنسمع حيث سرنا قلوبا تخفق معنا وتتحدث بلغتنا وتتلو قصائدنا وتردد اغانينا ؟ ان التاريخ الذي اظلنا قد اظل معنا الجزيرة السمراء وشماليافريقيا، وكل ما نملكه من كنوز فكرية وجمالية هو ايضا ملك لهم ، من معلقة امرىء القيس الجميلة ، الى اقاصيص شهرزاد وعنترة وقد تحددت من ليلة الى ليلة عبر قرون التاريخ العربي في كل مدينة عربية . هذه هي المشاركة الثمينة التي تعطينا اياها عروبتنا التي تتحرق في دمائنا ممدودة الذراعين نحو تسعين مليونا من العرب يتوزعون على مساحة شاسعة من الارض العربية .

ان هذه المشاركة هي التي تعطي للقومية العربية واقعيتها وجذورها المتمكنة ، ومن دونها تبقى الحماسة نظرية فلا تسندها الحياة . كلما كان الانسجام اكبر واوسع مدى كانت الرابطة اوثق واقوى وكان ثباتها في وجه اعدائها ايسر . ان المشاركة حيث وجدت تستتبع حماسات وحبا وصداقات . ومن ثم فان اغنية عربية واحدة تنبعث في جمع مختلط من ابناء العرب كفيلة بان تلهب مشاعرهم في لحظة ، وتشدهم بالف رابطة مرهفة فيندفع الواحد منهم نحو الاخر يبتسم ويصافح ويتحدث . ذلك ان الاغنية جزء من تراث الامة النفسي . ان لكل فرد معها تاريخا شخصيا . قد ترتبط الاغنية بلحظة من لحظات الطفولة لدى احدنا ، بيوم غائم معين لدى الاخر ، بقطعة حلوى شعبية لدى ثالث ، بفترة الم موجع لا تنسى لدى رابع . لقد سمعنا هذه الاغنية ذات صباح ، في فترة معينة من عمرنا تركت فيها نكهتها ولونها . ومنذ ذاك اصبحت جزءا من تاريخنا الداخلي . ولكنها ايضا ، جزء من تاريخ فتاة جزائرية تعيش بعيدا عنا وراء المسافات ، وهي ايضا اغنية صياد سمك يافع على البحر الاحمر تبوح سمرة وجهه بانه يتحدر من تاريخنا العربي نفسه . وما تكاد هذه الاغنية تنبعث حتى تشحن فينا تلك العواطف الدفينة والذكريات الحية وترفعنا الى مستوى واحد من الانفعال .

كل هذه الروابط ، كل اغنية عربية ، كل بيت شعر قديم ، كل حكمة وكل مثل ، كل تحية وكل لفظة في اللغة ، كل ذلك يشكل النسغ القومي الذي يجري في كيان العروبة الموهوب . وهذه الكنوز من الاغاني والقصص والالفاظ والاجواء والعواطف تربطنا ربطا محكما وتحفظ لنا في اعماقها رصيدا جاهزا من الانفعال يستطيع ان يشحن وينبعث في اية لحظة ويجعل ايدينا تتماسك وتخلق مناصفا لا تزعزعه قوة في الوجود .

ب ـ الحاجة الى البذل العاطفي

يبدو احد وجوه حاجتنا الى القومية في حقيقة انسانية بسيطة هي ان الانسان مخلوق ذو عواطف ، وانه مجهز بقدرة عظيمة على الانفعال في مختلف الاتجاهات . وذلك انها طبيعة راسخة في الفرد البشري انه يحتاج الى ان ينفق طاقته الانفعالية ويتخلص منها والا اصبحت عبئا عصبيا ثقيلا يبهظ كيانه ويصيب توازنه النفسي بالاختلال . والمحبة ، بمختلف وجوهها ومراتبها ، هي السبيل الاعظم لانفاق هذه الطاقة المشحونة من الاحاسيس فالانسان مخلوق محب ، وهو لا يقوى على الحياة مالم يحب كثيرا من الناس وكثيرا من الاشياء مختلف انواع الحب . ان لدينا طاقة من الحماسة والمودة تبحث ابدا عن مصب فتجد متنفسها في اصناف الصداقات والعلاقات الفردية التي يدور كل فرد في فلكها ، وتتسع حتى تتخطى الحدود الفرعية فتتجه الى الدوائر الاكبر ، حين تلتقي بالشعور القومي . ان العواطف الفردية الصغيرة التي يحسها انسان نحو جاره لا تلبث ان تكبر حتى تتحول الى العاطفة القومية . وكما ان الفرد لا يقوى على الحياة من دون اهل واصدقاء ومعارف يبادلونه مختلف درجات الشعور ، فكذلك يحتاج ايضا الى ان يحب مجموعا كبيرا بالغ الكبر ويمد اليه ذراعيه متعاطفا معه كل التعاطف . وانها لمزية خاصة بالانسان انه يملك ، في اعماق نفسه ،

ـ التتمة على الصفحة ٦٧ ـ

القومية العربية والحيـــاة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

من بذور الخير والمودة اكثر مما يحتاج اليه في دائـرة علاقاته الشخصية الضيقة ، فلا بد له ان يمنح من حبـه وحنانه الى الملايين . ان الفرد منا يحس باندفاعات جياشة نحو الاخرين ، نحو المجموع الاكبر ، تدفعه اليهم عواطف اخاذة وحنان مبهم لاتفسير له يصدر عن طبيعته العميقـة الملزمة . وهذا الاحساس هو جوهر الشعور القومي،نعطيه الى الحياة لانه يخلصنا من كثافة المشاعر الودية التي تغمر كياننا ولا بد ان ننفقها ، وفق قانون طبيعتنا . اذا كانت صداقاتنا الفردية تمنحنا تحقيقا لذواتنا المتعطشة الـى الاخذ والعطاء ، فان صلاتنا الشعورية بالملايين توسع دائرة انسانيتنا وتخرجنا من الخاص الى العام ، وتضاعـف مواهبنا وملكاتنا وقوة الخير في انفسنا . ومن هنا كانت القومية انماء لانسانية الفرد وشحذا لدوافع الخـــير والروحية في كيانه .

وقد يعترض معترض بان في امكان المرء ان ينشيء صلات الحب هذه مع ابناء القوميات الاخرى ، ومن ثـم فان هذه الطاقة العاطفية الفطرية في الانسان ، لـــن تستوجب قيام المجتمعات القومية . والجواب على هذا الاعتراض ما سبق ان اشرنا اليه من ضرورة قيام عنـصر المشاركة لكي يكتمل للانسان استقراره الروحي الحـق وسعادته . اجل ، ان في امكان المرء ان يحب افـــراد القوميات الاخرى ، خارج منطقته ، كل الحب ، ولكن ذلك لن يملأ نفسه حق الملء ، وسوف يبقى في روحه فـراغ دائم اشبه بالمرض ، ينادي بطلب علاقات قومية . وذلك هو سبب مانرى من تكتل الجاليات الاجنبية في البلاد ، فانهم يجدون سعادة في تقاربهم حتى لو كانوا في اوطانهم اعداء لا يمكن التاليف بين قلوبهم .

ولعله من سوء حظ دعاة العالمية ، ان الانسان ليـس مخلوقا نظريا يخضع للعمليات الحسابية : وانما هو دائما ابن بيئته يستمد انسانيته وتكوينه المعنوي والمادي منها . وانما تكون سعادته ويكون نجاحه بمقدار ما يحقق لنفسه من انسجام في مختلف الدوائر التي يعيش فيها . فقد يؤمن فرد عربي احر ايمان واخلصه بانه ليس من فرق بين الشعوب ، ثم يذهب ـ على اساس ايمانه ذاك ـ ليعيش في استراليا مثلا ، ظانا انه بذلك قد حقق لنفسه السعادة المطلقة . غير انه سرعان ما يصطدم بانه غير منسجم ، وان المشاركة بينه وبين المحيط الجديد من الضآلة بحيث يشعر بانه تائه مضيع عطشان ، دون ان يفهم لماذا . ولسوف يدرك هذا الانسان بسرعة ، ان ذلك الحب الذي ظن انه يكنه للناس والاشياء في البلد الجديد لم يكن حبا كاملا يرضي نفسه كلها وانما كان نزوة مثالية انساق فيها مـع نظرية محضة . وانما المحك هو القلب الذي يحكم بامره ولا يخضع الا لقانونه . وهذا القلب يغص بالدموع حـين يتذكر النخلة الهزيلة التي كانت تقوم امام منزله في الوطن البعيد ، ويتأثر حتى لذكرى اولئك القرويين العرب الحفاة بشتائمهم وجهلهم وامراضهم . ولسوف يحس هـــذا الانسان كما احست صديقة لي غادرت مدينتها بعد ان اغرق دجلة الحي الشاسع الذي كانت تسكنه اسرتها سنة ١٩٤٥ ، فما زالت هذه الصديقة تحن اشد الحنين الى رائحة الماء الاسن والبق الفظيع الذي عشش في المنطقة المغرقة بماء النهر .

ج ـ الحاجة الى الارتكاز والاتساع

احد وجوه حاجة المجتمعات الى الاحاسيس القوميـة ان القومية تمد انسانية الفرد وتوسعها في مختلـــف الاتجاهات . . ذلك ان الانسان ، حين يشعر بانه فرد فـي جماعة كبيرة مقتدرة عديدة الملايين ، يكتسب احساســا بقوة روحية هائلة وباتساع وامتداد باذخين ليس لهمـــا حدود . وما من شيء يلهب ملكات النفس مثل هذا الاحساس بالقوة والثقة والامتداد . ان الروابط الوثيقة المرهفـــة التي تشد عشرات الملايين من العرب ، تخلق منهم جماعة بكل ما في هذه الكلمة من مدلولات اجتماعية . وكـــل جماعة قوية خاصة اذا كانت جماعة متجانسة دما وتاريخا ولغـة وتقاليـد .

ان تلك اللحظة التي ينبثق فيها الاحساس القومي فـي اعماق الفرد العربي هي لحظة انبعاث تشحذ فيه طاقـات جديدة هائلة لايحدها شيء .

انها لحظة ميلاد وحياة وتفجر مواهب وتعطش للعمـل والانتاج بكل ما في قدرة الانسانية من حماسة وحرارة . فما يكاد اصبع القومية يلمس ضمير الفرد العربي حتـى يتسع في الزمان والمكان معا ويلاحظ فجأة ان له ملايـين من الاخوة والاحباء في بقعة شاسعة من الدنيا . انـــه يخرج من ضيق بغداد او القاهرة او بيروت الى فضـــاء رحب ممتد ، اوسع مما تصله الاحلام . ان له ، لهـــذا الفرد العربي الذي تختلج روحه بنبعته القومية ، موانـيء بيضاء مسترخية على البحر الاحمر والمحيط الاطلسي ، له مدن خضراء في شمالي افريقيا وجنوبي الجزيـــرة ، له مناجم وآبار نفط في بقاع قاصية ، له قنال السويس وشط العرب ومغارة قاديشا ، وهو يجد نفسه يتســـع ويتسع حتى يسمع نفسه يتكلم باللغة عينها في الاردن ، ويضحك لنكتة عربية في ليبيا ويشارك باغنية شعبيـــة ساذجة في صعيد مصر . حيثما اتجه هذا العربي فسيجد اناسا يتحدثون بلسانه ويبتسمون لنكته ويرددون اغانيـه

ويحفظون تاريخه ويتحمسون لكل مايتحمس له ، وفوق كل شيء ، سيجد اناسا يحبونه وتخفق قلوبهم في الترحيب به ويفتحون له اذرعهم المتلهفة .

وهكذا تمنحنا عروبتنا احساسا بقوة لامثيل لها . ان هذه الملايين من الوجوه العربية المشربة بحرقة الشمس تعطي الفرد الواحد منا سندا عظيما ونصرا وثقة ، وتشعره بانه لايقف وحيدا وانما ينتظره عبر المسافات اخوة مشاركون لاتشحب مودتهم ولا تنطفيء ولا تحول . وما يلبث الفرد حتى يملك فيضا من الثقة بالنفس والقدرة على الكفاح والحياة .

ان ترديد تسعين مليون انسان للاغنية التي اغنيها يخلق في نفسي ولا ريب قدرة سحرية على الاندفاع حتى استطيع ان ادحر الحواجز كلها ، وهذه اروع هدية تمنحنا اياها العروبة .

في الواقع ان هذه القوة الغلابة التي تكسبنا اياها احساساتنا القومية هي التي تجعل الاستعمار يحارب الدعوة القومية ويحاول خنقها بكل وسيلة تتاح له . يحاول الاستعمار ان يمنعنا من ان نكون قوميين كما يمنعنا من الاستفادة من الغلال والكروم الطيبة التي تمنحنا اياها اراضينا الخيرة المعطاء . يود هذا الاستعمار لو حمل انهارنا ومضى بها ، لو عرى جبالنا ووديانا من التوت والجوز والزيتون ، يود لو جف النسيم فلم يعد يحمل الرطوبة والحنان الى شفاه السنابل المتحرقة في سهولنا العربية الخضر . ولكن القومية العربية هي أثمن مايريد الاستعمار أن يسلبنا اياه . فلو كانت هذه القومية مادة تلمس وتحمل لمضى بها ديغول وايزنهاور ومكميلان كما يمضون بالنفط والذهب والقطن والتمور . ولكن قوميتنا والحمد لله ،لاتسرق . ان العروبة هي كنزنا واعز ممتلكاتنا . ونحن نملكها كما نملك النور والهواء والقمر والعبير ، فهل في وسع جيوش الاستعمار ان تسلبنا هذا ؟ اننا نقبض في ايدينا على القوة القهارة التي تؤرقهم وتخيب كل مطامعهم . ففي ايدينا المتشابكة حرارة العروبة وحماسة القومية فلن يفرقنا بعد ذلك اي شيء .

ان ضمان المجتمع القومي لهذه الحاجات الطبيعية الثلاث في حياة الفرد يجعل القومية العربية سبيل حياة للفرد وللجماعة معا فنحن نحس الحاجة اليها كما نحس الجوع والعطش والحنين . وان جوع العروبة في نفوسنا لهو ألذ انواع الجوع واحبها لانه الجوع الاسمى الذي يرتكز الى عطش الاكتمال وحرقة الحياة نفسها ، فلا سعادة لنا من دونه ولا غد ولا انسانية .

بيروت — نازك الملائكة